الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية

د. موسم عبد الحفيظ
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
أستاذ مؤقت (سابق)
جامعة تلمسان - الجمهورية الجزائرية

بيانات الأطروحة

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل.م.د)
تخصّص "تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر"
قسم التاريخ - جامعة أبي بكر بلقايد (تلمسان)

الباحث: موسم عبد الحفيظ
إشراف: أ.د. الدكتور جبلي الطاهر
الجزائر٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
الحركة اليوسفية، الثورة الجزائرية، الديوان السيّاسي، الاستعمار الفرنسي، صالح بن يوسف، بورقيبة، الاستقلال الدّاخلي، الاستقلال التام، الكفاح المسلح

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.12816/0054810 DOI

مُلَخّصْ

يعتبر موضوع "الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية"، من أهمّ المواضيع التي تعكس لنا جوانب مهمّة عن العلاقات الجزائرية التونسية خلال مرحلة الثورة الجزائرية. فالحركة اليوسفية التي ظهرت في تونس عقب التّوقيع على اتفاقيات الاستقلال الدّاخلي في ٠٣ جوان ١٩٥٥، أعلنت منذ بدايتها عن رفضها لمبدأ الحكم الذّاتي، حين رفعت شعار "الاستقلال التّام". والتقت بذلك في خندق واحد مع الثورة الجزائرية، التي كانت تسعى هي الأخرى إلى تحقيق الاستقلال التّام. وعلى هذا الأساس برز التّنسيق واضحًا بين أنصار اليوسفية وقادة الثورة الجزائرية لأجل توحيد الكفاح المسلّح بينهما، كما تجسّدت مظاهر التّنسيق بينهما ميدانيّا من خلال التحاق اليوسفيين بالثورة الجزائرية ومشاركتهم في نقل وتهريب الأسلحة إلى الجزائر. الأمر الذي دفع بورقيبة وجهاز الدولة التونسي إلى التّحالف مع فرنسا للقضاء على الحركة اليوسفية وعزلها عن الثورة الجزائرية.

مُقَدِّمَةٌ

تعرّضت الجزائر وتونس للاستعمار الأوروبي الحديث، حيث احتلّت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠، ثم فرضت حمايتها على تونس عام ١٨٨١، وأصبحتا بذلك خاضعتين لنظام استعماري قائم على أساس إلغاء الحقوق الوطنية لكلّ واحدة منهما، ففي الجزائر قضى الاستعمار الفرنسي على نظامها السيّاسي بشكل نهائي، حين أعلن بمقتضى المرسوم الملكي الصّادر في يوم ٢٢ جويلية ١٨٣٤، أنّ الجزائر جزء من الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا. وفي تونس تمّ وضع النّظام السيّاسي بمقتضى مضمون معاهدة الحماية تحت تصرّف المقيم العام الفرنسي الذي جرّد بايات تونس من سيّادتهم على الدولة التونسيّة، ولم يترك لهم إلا سيّادة جزئية.

ولم يقف مشروع نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس عند حدود الاستلاب السيّاسي والاقتصادي فحسب، بل تعدّاه إلى استهداف الإنسان الجزائري والتونسي في هويّتهما ومقوّماتهما الشّخصيّة، حين مارس الاستعمار مختلف أشكال العنف والاضطهاد في حقّ أبناء هذين البلدين، معتمدًا في ذلك على سيّاسة الإبادة الجماعيّة القائمة على التّقتيل والتّشريد والنّفي، وسيّاسة التّشجيع على الاستيطان لأجل ضمان استمراره بالأراضي الجزائرية والتونسية.

وكردّ فعل على الاستعمار الفرنسي في هذين البلدين، قام الشعبان الجزائري والتونسي خلال المراحل الأولى للاحتلال، بالاعتماد على الكفاح المسلّح كوسيلة للدّفاع والمواجهة بعد أن دنّست أقدام الاستعمار الفرنسي أراضي الجزائر وتونس، ثم تغيّر أسلوب النّضال مع مطلع القرن العشرين بسبب عدم تكافؤ القوى والإمكانيّات العسكرية، ليتّخذ نهج الكفاح السيّاسي كأسلوب جديد للنّضال إلى غاية اندلاع الثورة المسلّحة في تونس سنة ١٩٥٢، وفي الجزائر سنة ١٩٥٤.

ونظرًا لعاملي الجوار الجغرافي وقدم العلاقات التّاريخية والبشرية بين البلدين، فقد حفل كفاحهما ضدّ الاستعمار الفرنسي بكثير من مظاهر التّضامن والتآزر، حيث برز التّنسيق النّضالي واضحا بينهما منذ الوهلة الأولى للاحتلال، ويتّضح ذلك من خلال سعيهما إلى الدّفاع المشترك عن حريّة وكرامة الإنسان الجزائري والتونسي. كما بلغ التّضامن التونسي الجزائري أوجّه خلال مرحلة الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٤-١٩٦٢) التي استطاعت بفضل قوّتها وامتداد تأثيرها إلى داخل تونس، أن تجعل الشعب التونسي معني بأحداثها من يوم اندلاعها إلى غاية تحقيق الاستقلال. وبهدف الكشف عن بعض الجوانب المهمّة من التّضامن الحاصل بين أبناء البلدين خلال مرحلة الثورة الجزائرية، قمنا باختيّار موضوع البحث الموسوم بـــ "الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية"، لعلّنا نساهم من خلاله في إبراز مدى قدرة الثورة الجزائرية على ربط العلاقات الأخويّة مع دوّل الجوار، وتوظيفها لخدمة مشروع الكفاح التحرّري ضدّ الاستعمار.

أهمية موضوع الدّراسة

يعتبر موضوع الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية، من أهمّ المواضيع التي تكشف لنا عن جوانب مهمّة من العلاقات الجزائرية التونسية خلال مرحلة حاسمة من التّاريخ الوطني المعاصر، ألا وهي مرحلة الثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢ التي حُظيت باهتمام واسع في الأوساط المغاربية بصفة عامّة، باعتبار أنّها قد تركت منذ الوهلة الأولى لاندلاعها وطوال السّنوات المتعاقبة، انعكاسات كثيرة على تطوّر الأوضاع في بلدان المغرب العربي، بفضل توجّهاتها المغاربيّة المعلنة من خلال مواثيقها.

فبحكم صلات التّقارب، ومبادئ الشعور بالوحدة القائمة بين الشعبين الجزائري والتونسي، تجسّد التّضامن واضحًا بينهما طيلة الفترة الاستعمارية، وتعمّقت مظاهره أكثر فأكثر خلال مرحلة الثورة التّحريرية الجزائرية. فخلال الأشهر الأولى لاندلاع الثورة الجزائرية، كانت هنالك مفاوضات جاريّة بين الحكومتين التونسية والفرنسيّة، وهي المفاوضات التي انتهت بالتّوقيع على اتّفاقيات الحكم الذّاتي في تونس بتاريخ ٠٣ جوان ١٩٥٥، مُحدثة بذلك انقسامًا كبيرًا في صفوف الدستوريين التونسيين، خاصّة بعدما أعلن الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي الزّعيم "صالح بن يوسف" عن معارضته لمضمونها معتبرًا إيّاها "خطوة للوراء". وضمّ إليه بعد توضيحه لأهمّ التّجاوزات التي تضمّنتها تلك الاتّفاقيّات، عدّة تيّارات فكريّة وأحزاب سيّاسيّة ومنظّمات نقابيّة ذات ثقل سيّاسي كبير في تونس، فمنذ ذلك الحين ظهرت "الحركة اليوسفية" في تونس لتعبّر عن رفضها القاطع للاستقلال الذّاتي، مُعلنة استئنافها للكفاح المسلّح بجانب الثورة الجزائرية إلى غاية التخلّص التّام من السّيطرة الأجنبية في نطاق مغرب عربي محرّرة أجزاؤه الثلاثة تحريرًا كاملا يضمن دوامه باستمرار.

هكذا يكون موضوع "الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية" من المواضيع ذات الأهميّة الكبيرة بالنّسبة لتاريخ الشعبين الجزائري والتونسي، إذ أنّ البحث فيه يصوّر لنا جانبا مهمّا من الملحمة التونسيّة الجزائرية في مواجهة الاستعمار الفرنسي، كما يكشف لنا عن روح التّضامن والتّعاون بين التيّار الوطني الثوري الوحدوي في تونس والثوّار الجزائريين من خلال الإحاطة بأهمّ مظاهر الدّعم والمساندة التي قدّمها اليوسفيون للثورة الجزائرية، هذا فضلاً على أهميّته في توضيح الحقائق التّاريخية المتعلّقة بتطوّر الحركة اليوسفية ومصيرها.

الإشكالية التي تعالجها الدّراسة

ترتبط إشكالية الدّراسة بالبحث أساسًا في العلاقة القائمة بين الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية أثناء مقاومة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس. وذلك بالإجابة على التّساؤلات التّالية:

- ما هي الجذور التّاريخية لظهور الحركة اليوسفية؟
- ما هي طبيعة وحقيقة الحركة اليوسفية؟
- لماذا ارتبط اسمها بصالح بن يوسف؟
- ما هو المجال الجغرافي للحركة اليوسفية؟
- كيف استطاع بن يوسف أن يكسب شرائح هامّة من المجتمع التونسي إلى صفّ اليوسفيين؟
- ما هي أهمّ التيّارات التي أعلنت ولاءها للحركة اليوسفية؟
- ما موقف الحركة اليوسفية من الثورة الجزائرية؟
- ما هي الاستراتيجية المعتمدة في تنسيق النّضال بين مقاومي اليوسفية والثوّار الجزائريين؟
- فيما تمثّلت مظاهر دعم اليوسفيين للثورة الجزائرية؟
- ما الذي كان يسعى إليه اليوسفيون من وراء تحالفهم مع الثورة الجزائرية؟
- كيف كان موقف النّظام البورقيبـي من التّنسيق القائم بين اليوسفيين وثوّار الجزائر؟
- كيف كان موقف السّلطات الاستعمارية الفرنسية من التّنسيق بين مقاومي اليوسفية والثوّار الجزائريين؟
- ألم يؤثر موقف اليوسفيين من الثورة الجزائرية على علاقة النّظام البورقيبـي بالسّلطات الاستعمارية؟

فصول الدّراسة

تضمّن موضوع الدراسة مقدّمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول، وخاتمة متبوعة بمجموعة من الملاحق التي تحتوي على بعض الوثائق الأرشيفية والنّصوص والخطابات التي سجّلناها من الصّحافة التونسية، هذا بالإضافة إلى ترجمة الأعلام المحورية

في موضوع البحث، وقائمة المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

بالنّسبة **للمقدّمة**، فإنّها تتضمّن التّعريف بموضوع الدّراسة مع إبراز أهمّيته وأسباب اختيّاره، وتوضّح أيضا إشكاليّة البحث الرّئيسية والتّساؤلات الفرعيّة المرتبطة بها. كما تستعرض خطّة الموضوع بشكل عام، والمنهج المعتمد في الدّراسة، مع نقد أهمّ المصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز هذه الأطروحة.

أما **الفصل التّمهيدي** فإنّه يتطرّق بنظرة عامّة إلى العلاقات السيّاسية بين الجزائر وتونس قبل الثورة التحريرية الجزائرية، مُستهلا الحديث في ذلك بذكر أهمّ المقوّمات الأساسيّة للتّواصل بينهما (الأرضية الجغرافية، العوامل الحضارية، المعالم التاريخية...)، ثم تناول العلاقات بين هذين القطرين خلال مرحلتي الاحتلال والمقاومة من خلال الإشارة إلى أبرز مظاهر التّضامن والتآزر المتبادلة بين تونس والجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، وفيه أيضًا حديث عن العلاقات القائمة بينهما خلال مرحلة النّضال السيّاسي، من خلال التطرّق إلى تعاون وتضامن الشعبين الجزائري والتونسي في شتى المجالات السيّاسية والثقافية، واشتراكهم جنبا إلى جنب في النّضال الوطني عن طريق انتماءاتهم إلى الجمعيات السيّاسية والإصلاحية والأندية الثقافية التي أسّسوها خلال مرحلة الاستعمار، باعتبار أنهم كانوا يلتقون مع مطلع القرن العشرين على المستوى العلمي والفكري ليعبّرون عن طموحاتهم وآمالهم بقيّم حضارية عربية وإسلامية. وفي نهاية هذا الفصل خصّصنا عنصرا للحديث عن العلاقات التي تجسّدت بين الجزائر وتونس ضمن النّضال المغاربي المشترك، من خلال الإشارة إلى أهمّ المحطّات التّاريخية المهمّة لنضال المغاربة (الجزائر، تونس، المغرب) ضدّ الاستعمار الفرنسي.

وبحثنا عن الخلفيّات التّاريخية لظهور الحركة اليوسفية في **الفصل الأوّل** من هذه الدّراسة، من خلال التطرّق إلى أهمّ الخلافات التي نشبت بين قيّادة الدستوريين التونسيين داخل وخارج تونس، مع الإشارة إلى تطوّر الخلاف بينهم بسبب تباين مواقفهم حول استراتيجيّات العمل النّضالي، وانعكاساته على وحدة صفوفهم. كما تحدثنا في نهاية هذا الفصل عن الخلاف الذي حدث بين قيّادة الحزب الدستوري التونسي بعد التّوقيع على اتّفاقيات الاستقلال الدّاخلي لتونس في ٠٣ جوان ١٩٥٥، مع توضيح أثره المباشر في تفجّر الصّراع بين جناح الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الحرّ الدستوري الجديد، الذي كان من أشدّ المدافعين عن التّسوية السيّاسيّة مع الاستعمار الفرنسي، وجناح صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الذي كان من أشدّ المعارضين لهذه التّسوية، حيث بات الوضع ملائما حينذاك لميلاد الحركة اليوسفية كحركة معارضة للحكم الذّاتي بتونس.

وخصّصنا **الفصل الثاني** للحديث عن طبيعة الحركة اليوسفية وتطوّرها، محاولين بذلك تحديد مفهوم الحركة اليوسفية (اليوسفية: فتنة؟، أم ثورة ثانية؟ أم حركة معارضة؟)، وإبراز بعدها القومي العربي، مع تفسير ارتباط اسمها بشخصيّة بن يوسف. وفيه أيضا استعرضنا المجال الجغرافي للحركة اليوسفية في تونس، بتوضيح مختلف المناطق التونسية التي تواجدت بها الشُّعب اليوسفية. كما تطرّقنا في نهايته إلى الاستراتيجية التي اعتمدها بن يوسف في حشد الأنصار، مُوضّحين في ذلك أهمّ القوى والتيّارات التي أعلنت عن ولائها للحركة اليوسفية مثل (الحزب الدستوري القديم، بعض أفراد الأسرة الحسينية، الاتحاد العام للفلاحة التونسية، قدماء المقاومين التونسيين، مثقفي جامع الزيتونة...).

أمّا فيما يخصّ **الفصل الثالث** من هذه الأطروحة، والذي يمكن اعتباره جوهر موضوع الدّراسة، فإنّنا تطرّقنا فيه بنوع من التّفصيل إلى علاقة الحركة اليوسفية بالثورة الجزائرية، من خلال الإشارة إلى أسباب ودوافع اهتمام اليوسفيين بالخيار العسكري، وخلفيّة البعد الثوري الوحدوي للزّعيم صالح بن يوسف. كما وضّحنا فيه موقف الحركة اليوسفية من الثورة الجزائرية، وجهود بن يوسف في توحيد الكفاح مع الجزائريين. وفيه أيضا تحدثنا عن علاقة جيش التّحرير الوطني التونسي بالثورة الجزائرية، من خلال التّعرف على نشأة وأهداف جيش التّحرير الوطني التونسي، مع إبراز مظاهر التّنسيق القائمة بينه وبين جيش التّحرير الوطني الجزائري. وفي نهاية هذا الفصل تحدثنا عن مظاهر دعم اليوسفيين للثورة الجزائرية من خلال التطرّق إلى أهم المقاومين اليوسفيين الذين شاركوا فيها، مع الإشارة إلى دورهم الميداني في تهريب الأسلحة وإيصالها إلى الجزائر.

وفي **الفصل الرّابع** والأخير، تحدثنا عن استراتيجية التّحالف البورقيبـي الفرنسي في القضاء على الحركة اليوسفية وعزلها عن الثورة الجزائرية، من خلال التعرّف على أهمّ الأطراف المعادية للحركة اليوسفية (الحبيب بورقيبة زعيم الديوان السيّاسي، الحكومة التونسية، فرنسا)، وإبراز طبيعة وأهداف العلاقة القائمة فيما بينها (التحالف المصلحي). ثم تطرّقنا إلى الاستراتيجية المعتمدة من طرف هذه الأطراف في القضاء على اليوسفيين وإفشال تنسيقهم مع الثوّار الجزائريين. وفي نهاية هذا الفصل قدّمنا قراءة عامّة حول موضوع الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية، من خلال الوقوف على مجالات النجاح والفشل في نضال الحركة اليوسفية.

لقد أنهينا موضوع الأطروحة بخاتمة تتضمّن مجموعة من النّتائج التي توصّلنا إليها أثناء فترة البحث، محاولين الإجابة فيها عن التّساؤلات المطروحة في المقدّمة في شكل خلاصات واستنتاجات. وتدعيمًا لما ورد في هذه الأطروحة من معلومات، فإنّنا حرصنا على توثيقها بمجموعة من الملاحق ذات الاتصال

الوثيق بموضوع الدّراسة، وهي في مجملها عبارة عن نماذج لبعض الوثائق (وثائق أرشيفية، خطابات صحفية، مراسلات...) كشواهد وأدلة ماديّة على صحّة ما ورد في البحث. هذا بالإضافة إلى ترجمة الأعلام المحورية في موضوع البحث وفهرس الموضوعات.

المنهج المعتمد في الدّراسة

بناءً على هذه الخطّة، ومن أجل الإلمام بكلّ الجوانب المختلفة لهذا الموضوع، وفي محاولة منّا للإجابة على التّساؤلات التي أثرناها، فإنّنا اعتمدنا في معالجة مضمون هذه الأطروحة على المنهج التّاريخي، بهدف رصد الأحداث التاريخية وتحليلها، ملتزمين بوحدة الموضوع في السيّاق التاريخي العامّ، وفي إطار العمل على الاهتمام بكافّة الظروف والمعطيات الموضوعية التي تؤثّر في الحدث التّاريخي من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية قدر المستطاع.

المصادر والمراجع المعتمدة في الدّراسة

فيما يخصّ قائمة المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في البحث، فهي كثيرة ومتنوّعة ومتداخلة، ولا يسعنا المجال لإحصائها، لذلك سنركّز في هذا المقام على نقد الأهمّ منها:

الوثائق الأرشيفية:

باعتبار الأرشيف هو المصدر الأوّل والأساسي لأيّ دراسة من الدّراسات التّاريخية، فإنّا اعتمدنا في إنجاز هذه الأطروحة على مجموعة من الوثائق الأرشيفية (مراسلات، تقارير، خطابات، صحفية...)، التي أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها أثناء زيّارتنا لمركز الأرشيف الوطني التونسي، والمعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر. ومن أهمّ الوثائق التي استندنا إليها بدرجة كبيرة في توثيق البحث نذكر:

- التّقارير والملاحظات والقصاصات الصّحفية المتعلّقة بالخلاف السيّاسي بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف، وهي عبارة عن وثائق مصنّفة بمركز الأرشيف الوطني التونسي ضمن سلسلة الحركة الوطنية التونسية، في الصندوق رقم ٦١ (الملفّ رقم ٠٥)، التي كشفت في مضمونها عن تصريحات وخطابات قادة الحركة اليوسفية الدّاعية إلى رفض الحكم الذاتي بتونس ومواصلة الكفاح المسلّح بجانب الجزائريين إلى غاية تحقيق الاستقلال التّام.
- بعض التّقارير المتعلّقة بالنّشاط السيّاسي في البلاد التونسية، التّابعة لوزارة الخارجية الفرنسية، والمصنّفة بمركز الأرشيف الوطني التونسي ضمن سلسلة المراسلات السيّاسية والتّجارية، التي تلمّح في مضمونها إلى أهمّ الزيّارات التي كان يقوم بها الزّعيمان بورقيبة وبن يوسف إلى مختلف المناطق التونسية لتعبئة وحشد الجماهير التونسية.
- التّقارير التّابعة للمصلحة التّاريخية لجيش البرّ الفرنسي (*S.H.A.T*)، التي مكّنتنا في مجملها من رصد مظاهر التّنسيق القائمة بين جيش التّحرير الوطني التونسي وجيش التّحرير الوطني الجزائري، من خلال إشارتها إلى تحرّكات ونشاط الفرق العسكرية المشتركة بين هذين الجيشين.

الشهادات الحيّة

متنوّعة وعديدة، منها التّسجيلات الشفوية والشّهادات المكتوبة. مثل: شهادة المقاوم الطّاهر لسود، شهادة المناضل حسين التريكي، شهادة المقاوم محمد الصّالح كعفار (من تونس)، بشير القاضي، أحمد مهساس (من الجزائر). حيث أفادتنا كثيرا في الكشف على جوانب مهمّة من علاقات الثوّار الجزائريين بزعيم المعارضة التونسية "صالح بن يوسف". من خلال تطرّق أصحابها إلى علاقة الحركة اليوسفية بالثورة التحريرية الجزائرية، ملمّحين في شهادتهم إلى أهمّ الأسباب التي دفعت بأشهر قادة الكفاح المسلّح بتونس إلى التخلّي عن صالح بن يوسف بعد الاستقلال التونسي.

المذكّرات الشخصية

اعتمدنا في موضوع البحث على مجموعة من المذكّرات الشخصية (الجزائرية والتونسية)، التي كانت على قدر كبير من الأهمية في التعرّف على عدّة جوانب من موضوع البحث، من ذلك مثلا "مذكّرات الرّائد عثمان سعدي بن الحاج" التي أشاد في صفحاتها بالدّور المتميّز للوطنيين التونسيين من دعاة الكفاح المسلّح في حركة تحرير الجزائر وتونس. ومذكّرات على المعاوي "ذكريات وخواطر"، وعبد الله العبعاب "شهادة للتّاريخ" التي كشفت في فصولها عن أحداث الصّراع اليوسفي البورقيبي في تونس ملمّحة في ذلك إلى علاقات اليوسفيين بقادة الثورة الجزائرية.

الكتب العربية

كانت درجة الاستفادة من الكتب المعتمدة كمصادر ومراجع للبحث متفاوتة من كتاب إلى آخر، ومن أهمّ الكتب التي استفدنا منها بدرجة كبيرة نذكر: كتاب عبد الله الطّاهر المعنون بـ"الحركة الوطنية التونسية. رؤية شعبيّة قوميّة جديدة"، الذي احتوى في مضمونه على تفاصيل مهمّة عن المعارضة اليوسفية التي كان يتزعّمها صالح بن يوسف، من خلال الإشارة إلى أهدافها وعلاقاتها بالثورة التحريرية الجزائرية. وكذلك كتاب فتحي الديب الموسوم بـ"عبد النّاصر وثورة الجزائر"، الذي أشار فيه بنوع من التّفصيل إلى تلك اللّقاءات التي كانت تتمّ بين أنصار صالح بن يوسف وقادة الثورة الجزائرية بهدف تنسيق وتوحيد النّضال فيما بينهم.

الرّسائل والأطروحات الجامعية

اعتمدنا في إعداد هذا البحث على قائمة متنوّعة من الرّسائل والأطروحات الجامعية بما فيها الماجستير والدكتوراه والدّراسات المتعمّقة في البحث التي لها علاقة مباشرة بصلب موضوع الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية. والملاحظ حول هذه الدّراسات خصوصا التونسية منها، هو أنها قد تناولت في جوهرها معلومات ثرية عن الحركة اليوسفية مركّزة في ذلك على أحداث الصّراع اليوسفي البورقيبـي بتونس، دون التطرّق باهتمام إلى علاقات اليوسفيين بدعاة الكفاح المسلّح على المستوى الخارجي. وأذكر منها على سبيل المثال: دراسة الباحث محسن الخميري الموسومة بـ" الحركة اليوسفية. مجالها وحدودها ١٩٥٥-١٩٦١" (دراسة التعمّق في البحث)، التي اكتفى فيها بتقديم بعض الحقائق المهمّة عن الحركة اليوسفية على المستوى التونسي (الدّاخلي) وفقط. ولعلّ من أهم الدّراسات التي أشارت في مضمونها إلى علاقة اليوسفيين بغيرهم من الوطنيين الثوريين المغاربة، نجد رسالة رضا ميموني حول "دور الوطنيين المغاربة في حركة تحرير تونس والجزائر من الحرب العالمية الثانية إلى غاية الاستقلال" (رسالة ماجستير) التي أفادتنا كثيرا في التعرّف على بعض الحقائق المتعلّقة بالبحث، باعتبار أنّها كانت بمثابة الدّليل الموجّه إلى البحث في بعض المصادر المهمّة بالنّظر إلى القائمة الببليوغرافية الثرية التي احتوت عليها.

المؤلفات باللّغة الأجنبية

في إطار البحث لجأنا إلى بعض الكتب المؤلّفة باللّغة الفرنسية، وهي عديدة ومتنوعة ومتفاوتة من حيث الأهمية، نذكر منها على سبيل المثال: كتاب الباهي الأدغم "مراسلات" *(correspondances)*، الذي مكّننا من الاطّلاع على مضمون المراسلات التي كانت تتمّ بين الوطنيين التونسيين خلال الفترة الممتدة من ١٩٥٢ إلى غاية أواخر ١٩٥٥، بما في ذلك الرّسائل التي كان يبعث بها بن يوسف إلى بعض الدستوريين التونسيين. وكذلك بحث محمد الوالدي حول Salah ben l'orage des indépendance) Youssouf et les youssefiste)، الذي يحتوي على بعض الحقائق التّاريخية التي ترتبط مباشرة بموضوع البحث.

نتائج الدّراسة

قادتنا دراستنا لموضوع الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية، إلى التوصّل لمجموعة من الخلاصات والاستنتاجات التي نوردها في النّقاط التّالية:

- إنّ رفض الحكم الذّاتي في تونس، وتمسّك الحركة اليوسفية بمطلب الاستقلال التّام، هو الذي دفع قيّادتها إلى تنسيق جهود النّضال مع قادة الثورة الجزائرية لأجل توحيد الكفاح المسلّح ومواصلة مسيرة التحرّر من الاستعمار الفرنسي، وهو ما تجسّد ميدانيّا على الصّعيدين السيّاسي والعسكري.
- لقد تمّ التّنسيق سيّاسيّا بين قادة كل من الحركة اليوسفية والثورة التحريرية الجزائرية، من خلال مجموعة من اللّقاءات والاتّفاقيات التي كانت تتمّ بينهما بهدف التّعارف والتّعاون لإعادة إحياء جبهة الكفاح المسلّح بتونس لدعم الثورة الجزائرية، مثل اللّقاء الذي جمع بينهم خلال شهر أفريل ١٩٥٥ بالقاهرة، والذي انتهى إلى تكوين لجنة تنسيق تجمع بين صالح بن يوسف وأحمد بن بلّة لتنسيق الكفاح المسلّح طبقا للخطّة العامّة لتوحيد الكفاح في الأقطار الثلاثة. كما تمّ التّوقيع خلال شهر جانفي ١٩٥٦، على اتّفاق بين الأمانة العامّة للحزب الدستوري الحر الجديد وممثّلي جبهة التّحرير الوطني بهدف ضبط وتنظيم سبل وآليّات التّعاون بين اليوسفيين والثوّار الجزائريين.
- إنّ اللّقاءات والاتّفاقيات التي كانت تتمّ بين قيّادة كلّ من الحركة اليوسفية والثورة التّحريرية الجزائرية، هي التي أثمرت عن ذلك التّضامن الفعلي والميداني للمقاومين اليوسفيين مع الثورة الجزائرية على الصّعيد العسكري، وهو ما يتّضح لنا من خلال التحاقهم بصفوفها ومشاركتهم الميدانيّة في عمليّات نقل وتهريب السّلاح إلى الجزائر، هذا فضلا عن تشكيل عدّة فرق عسكرية مشتركة بين جيش التّحرير الوطني التونسي وجيش التّحرير الوطني الجزائري، وهي الفرق التي خاضت عدّة عمليّات عسكرية ناجحة ضدّ قوّات الاحتلال الفرنسي على المناطق الحدودية بين تونس والجزائر.
- كان للحركة اليوسفية فضل كبير في فتح النّضال السيّاسي بتونس على آفاق وتوجّهات جديدة، كوحدة المغرب العربي والقوميّة العربيّة، وفي السيّاق ذاته يمكننا القول أنّ الحركة اليوسفية قد ساهمت إلى جانب الثورة الجزائرية في إنماء الشّعور العفوي الموجود بين الجماهير الشّعبية بانتسابها إلى أمّة عربيّة إسلاميّة تتجاوز حدودها حدود البلاد التونسية، وتحويله إلى وعي سيّاسي بالقوميّة العربيّة بمضمونها الوحدوي من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي.
- يعتبر تحالف الحركة اليوسفية مع الثورة التحريرية الجزائرية وتنسيق النّضال بينهما سيّاسيا وعسكريا، عامل جوهري ورئيسي في إقناع فرنسا بضرورة منح الاستقلال التّام لتونس، وهذا راجع إلى معطيين أساسيين هما:

(١) تيقّن فرنسا بأنّ مصالحها ومصالح رعاياها من الفرنسيين بتونس، قد أصبحت مهدّدة بصفة حقيقية خاصّة مع انتشار حالة اللاأمن والفوضى والاعتداءات على المعمرين الفرنسيين، كما أنّ المقاومة اليوسفية قد وضعت في استراتيجيتها محاربة هؤلاء المعمرين واستهدافهم، فخاضت بذلك عدّة معارك تدخّل فيها الجيش الفرنسي بما لم يتدخّل به في السّابق.

(٢) رأت فرنسا في الحركة اليوسفية خطرًا حقيقيّا على وُجودها في الجزائر، باعتبار أنّ استراتيجية جيش التّحرير الوطني التونسي كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى التّلاحم مع جيش التّحرير الوطني الجزائري ضدّ العدوّ المشترك، هذا فضلا على أنّ مقاومي اليوسفية كانوا يمثلون همزة وصل حيوية من الحدود مع ليبيا إلى الحدود مع الجزائر لإمداد الثورة الجزائرية بالسّلاح.

- إذا كانت المعارضة اليوسفية التي نشطت خلال الفترة الممتدّة من نهاية ١٩٥٥ إلى صائفة ١٩٥٦ بالتّنسيق مع الثّوار الجزائريين، قد ساهمت بالفعل في إخضاع فرنسا لمطالب الوطنيين التونسيين المتمثلة في إتمام الاعتراف بسيّادتهم على وطنهم وتحقيق الاستقلال التّام، فإنّها فقدت مقابل ذلك حقوقها للنّظر في مستقبل تونس السيّاسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، حين تعرّضت للتّصفية بشكل رهيب من طرف النّظام البورقيبـي الذي منح صلاحيّات واسعة للأمن التونسي قصد تتبّع اليوسفيين وتصفيّتهم.
- كانت مبادئ الحركة اليوسفية المتمثلة في رفض الحكم الذاتي والتمسّك بالخيار العسكري كوسيلة لتحقيق الاستقلال التّام لتونس ضمن نطاقها المغاربي العربي، إحدى أهم العوامل التي دفعت الزّعيم بورقيبة إلى التّحالف مع فرنسا للقضاء عليها (اليوسفية)، موظّفا في ذلك جهاز الدولة التونسي (القضاء، قوّات الأمن التونسي...) لتتبّع اليوسفين وتصفيتهم.
- إذا كان بورقيبة قد تمكّن بعد تحالفه مع فرنسا من هزيمة اليوسفيين، والتخلّص نهائيّا من خصومه بعد وقوف النّظام البورقيبي فعليّا وعمليّا مع الثورة الجزائرية، فإنّ فرنسا قد استطاعت هي الأخرى أن تتجاوز بفضل تحالفها مع بورقيبة كلّ المخاطر التي كانت تحدق بها من جرّاء تحالف اليوسفيين مع ثوّار الجزائر، لا سيما وأنها نجحت في دفع بورقيبة إلى معركة حقيقية للاقتتال بين التونسيين، خسر فيها الحزب نخبة من خيرة مناضليه في وقت كان من اللازم فيه على بورقيبة أن يوظّف قدراته وإمكاناته لأجل تحقيق وحدة الدستوريين التونسيين.
- لقد ساهمت المعارضة اليوسفية في دفع القيّادة البورقيبية – قناعة أو تحسّبا لسحب البساط من تحت أقدام خُصومها من اليوسفيين-إلى دعم الثورة الجزائرية ورفع شعارات التّضامن المغاربي، غير أنّ هذه الهبّة المسلّحة قد أتت متأخّرة نسبيّا، لأنّها تعارضت مع مصالح فئات جديدة كانت متعجّلة ومصرّة على تركيز سلطتها وإزاحة منافسيها حتى ولو تحالفت مع عدوّ الأمس، كما أنها كانت تهدّد بصورة حيوية استراتيجية الجيش الفرنسي في إطفاء نار الثورة التي تشتعل في الجزائر.

خَاتِمَةٌ

على كلّ، يمكننا القول في جملة واحدة، بأنّ تجربة الكفاح المشترك التي خاضها مقاومو اليوسفية وثوّار الجزائر جنبا إلى جنب، وإن كانت مدّتها الزّمنية قصيرة، إلا أنها أكّدت بعمق على حتمية التّرابط والمصير الواحد المشترك بين أبناء البلدين، حيث استفادت الثورة التحريرية الجزائرية من خدمات اليوسفيين بعدما تنكّر بورقيبة لمبادئ لجنة تحرير المغرب العربي وقبِل بالاستقلال الدّاخلي لتونس، ومن جهتها أيضًا استفادت الحركة اليوسفية من خلال تحالفها مع قادة الثورة الجزائرية في تعزيز مكانتها أمام السيّاسة البورقيبية التي كانت تسعى إلى إقناع التونسيين بالحكم الذّاتي. وأكثر من ذلك فإنّ تحالف اليوسفيين مع الثّوار الجزائريين قد ساهم بشكل كبير في دفع فرنسا إلى الاعتراف بالاستقلال التّام لتونس في ٢٠ مارس ١٩٥٦. لذلك لا بدّ أن نكون أوفياء لشهداء البلدين وللحقيقة التّاريخية، عندما نؤكّد أنّ التّفاعل الذي حصل بين الوطنيين الثوريين في تونس والجزائر خلال هذه المرحلة، كان لصالح الشعبين التونسي والجزائري معًا.